# تقديم

عندما قرأت للمرة الأولى عنوان هذا الكتاب الهام عبر صحيفة «الأومانيتيه» الناطقة بلسان حال الحزب الشيوعى الفرنسى، كانت المفاجأة كبيرة بالنسبة لى. وأتذكر يومها أننى وقفت حائرًا ومذهولاً أمام صفحة كاملة تبدأ بعنوان فرعى: «الإمبريالية والتبرير من خلال الكتاب المقدس ـ العهد القديم»، وعنوان رئيسى يقول: «الكتاب المقدس والاستعمار». وفى ذيل الصفحة عنوان ثالث: «الدعوة المقلقة للمسيحيين الصهاينة».

فى البداية ظننت أن حرف الواو فى العنوانين الأولين ليس له أى دلالة حقيقية. ثم تذكرت بعد لحظة أن الصحيفة شيوعية، وأن الشيوعيين لديهم، فى العادة، جرأة تقليدية فى تناول الكتب المقدسة، لكن عندما بدأت سطور المقالة تتوالى أمام بصرى أدركت أننى أمام مجموعة أخرى من المفاجآت، أولها أن الصفحة الكاملة التى أعدتها الصحيفة مرسلة من المبعوثة الخاصة للصحيفة بالقدس! وثانى هذه المفاجآت أن «الكتاب المقدس والاستعمار» هو عنوان لكتاب جديد سيصدر باللغة الفرنسية ـ نقلاً عن الأصل الإنجليزى الذى صدر فى ١٩٩٧م وأعيدت طباعته فى ١٩٩٩م ـ وأن مؤلف الكتاب ليس شيوعيًا، وإنما هو أب مسيحى أيرلندى بالقدس ويدعى مايكل پريور، ينتقد كما تقول الصحيفة «عمليات توظيف النصوص المقدسة، ولا سيما العهد القديم، فى تبرير الغزو والاستعمار وإبادة الشعوب الأصلية، وأن الإمبرياليين، فى كل الأزمان، وجدوا فى النصوص المقدسة تبريرًا لحملاتهم الاستعمارية بدءًا من الحروب الصليبية وحتى الحرب على العراق، ومرورًا بغزو الأمريكتين واستعمار فلسطين».

وهنا أدركت بالفعل أننى أمام عمل غير عادى، وأن الأمر يستحق اقتناء الكتاب وقراءته على مهل بعيدًا عن الكتابة الصحفية وضروراتها. وبعد قراءة مدققة تيقنت أننى أمام كتاب ليس مثل الكتب الأخرى، وأن المؤلف مايكل پريور رجل دين ليس مثل رجال الدين الآخرين، وأنه يمثل بالفعل لحظة شجاعة نادرة لرجل دين فهم بحق العمق الأخلاقى للنصوص المقدسة، ولم يقف عند ظاهر النصوص كما يفعل أغلب

رجال الدين والسياسة فى عالمنا المعاصر، وأن الكتاب يستحق أن يترجم وأن ينشر بالعربية بدون تردد.

لكن ما هى قصة هذا الكتاب أولاً؟ وما الذى دفع القس إلى تأليفه؟ وما هى الصعوبات التى واجهته فى طريق إنجاز هذا العمل الهام؟

يروى مايكل بريور هذه القصة فى التقديم الذى خص به الطبعة الفرنسية، التى كتبها فى أمريكا بعد أيام من أحداث ١١ سبتمبر:

«كانت دراساتى فى القدس عاملاً مهمّا فى تغيير مجرى حياتى... لأن القيام بدراساتى فى الأرض المقدسة جعلنى أطرح تساؤلات على ما أسميه بـ«اللاهوت الأخلاقى» المرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسكان والشعوب التى تعيش فى هذه المنطقة.. وعلى الرغم من أن اهتمامى الأساسى كان يتعلق بماضى الكتاب المقدس وتاريخه فقط؛ إلا أننى لم أستطع الابتعاد عن السياق الاجتماعى الحديث لهذه المنطقة. وفتحت دراستى للكتاب المقدس فى أرض الكتاب المقدس آفاقًا لى لم تكن لتفتح فى أى مكان آخر».

ويقول الأب مايكل بريور عن بدايات تجربته فى هذا الشأن: «... لم أكن أعتبر نفسى قبل حرب يونيو ١٩٦٧م، معنيّا بشكل خاص بدولة إسرائيل، باستثناء إعجابى باليهود الذين توصلوا إلى إنشاء دولة، وإعادة إحياء اللغة العبرية. وكانت المرة الأولى التى انتبهت فيها للصراع العربى الإسرائيلى تعود إلى اللحظة التى احتلت فيها إسرائيل الضفة الغربية ومرتفعات الجولان وقطاع غزة وسيناء. وكنت أبتهج لانتصار دولة إسرائيل «الصغيرة». ولم يكن هناك فى ذلك الوقت أى تحليل أو تعليق يدعم الموقف العربى، ولم أكن واعيًا بقدر كاف فى تلك الفترة. ولم أتشكك إطلاقًا فى فصاحة وزير الخارجية الإسرائيلى، وهو يخطب فى الأمم المتحدة، ويبدى أدبًا واحترامًا كالدبلوماسيين الغربيين، حتى عندما يقوم بخداع الآخرين؛ حيث وصف إسرائيل بأنها الضحية البريئة للعدوان المصرى.

وفيما بعد، فى لندن أثناء الصيف، شد انتباهى ملصقات كانت تؤكد على أن من يثق بأنبياء الكتاب المقدس لا يمكن أن يكون مندهشًا من انتصار إسرائيل. ولم أكن أقارن قط بين الأحداث المعاصرة ونبوءات الكتاب المقدس، فتعاليم الكتاب تنظر

لنبوءات الكتاب المقدس على أنها تتعلق فقط بفترة الأنبياء ولا تكشف المستقبل أو تعلن عنه إطلاقًا . . . واستغربت أن يوجد من يرى غير ذلك .

. . . وعندما بدأت حرب أكتوبر ١٩٧٣م، لم أشعر تجاه إسرائيل بالحماس نفسه الذى كان لدى عام ١٩٦٧م . . . وبدأت أتشكك فى الرأى السائد الذى كان يبرر الاحتلال لدواع أمنية . واكتشفت، خلال عامى ١٩٨٣-١٩٨٤م، أن الاحتلال لم يكن لدواع أمنية فقط ؛ وإنما كان يدعم سياسة التوسع من أجل قيام «إسرائيل الكبرى»، التى كانت الهدف النهائى للصهيونية . وبعد ذلك فهمت البعد الدينى للصراع، حيث كان الصهاينة يربطون بشكل وثيق بين النشاط الاستعمارى ونصوص الكتاب المقدس . وأعلنت فى تلك الفترة اعتراضى الصريح على هذا التصور الذى يرى أن تراث الكتاب المقدس بشأن الأرض يشجع على إبادة السكان الأصليين . . . وقمت فى عام ١٩٩١م بمسيرة دولية مع آخرين، من القدس إلى عمان من أجل السلام، لكن لم نصل قط إلى إكمال المسيرة وقبض علىَّ وتم سجنى مرتين . . . وبدأت أتعرف أكثر فأكثر على تاريخ المنطقة، وقمت بإجراء اتصالات مع أهم الشخصيات الفلسطينية خاصة زعماء الكنائس، وأسهمت فى عام ١٩٩٣م فى مؤتمر حول المسيحيين فى الأرض المقدسة . . .

وعندما رجعت إلى إنجلترا كتبت مقالاً عن «الكتاب المقدس : أداة قمع» وركزت على ثلاثة نماذج : أمريكا اللاتينية وجنوب إفريقيا وفلسطين . واعتبرت أن هذا الموضوع يستحق بحثًا أعمق، وأنه يجب النظر فى الأبحاث المتعلقة بالعهد القديم قبل القيام بذلك . وكنت أظن أن هناك من تناول الموضوع من وجهة نظر أخلاقية، إلا أن ظنى كان خاطئًا حيث لم يقم أحد بأية دراسة جادة فى هذا الشأن حتى الآن .

وفى خريف ١٩٩٥م بدأت بالفعل فى تأليف كتاب حول هذا الشأن . وانتهيت من تأليف «الكتاب المقدس والاستعمار» خلال فترة إقامتى كأستاذ فى جامعة بيت لحم، وكأستاذ مقيم فى المعهد المسكونى للاهوت فى الطنطور بالقدس ١٩٩٦-١٩٩٧م . . وأثارت دراستى للكتاب المقدس فى أرض الكتاب المقدس قضايا أخلاقية لا تتعلق فقط بالعلاقة بين تأويل الكتاب المقدس والتوظيف الاستعمارى له، بل تتعلق أيضًا بالمهمة الأخلاقية للباحثين والمتخصصين فى الكتاب المقدس فى هذا الشأن . . . وقد صُدمت عندما رأيت أن تبرير ترحيل العرب الفلسطينيين عام ١٩٤٨م كان يصدر عن تفسير

ساذج للكتاب المقدس، وأن البحث اللاهوتى الغربى ـ على الرغم من تشدده فى نقد الأنظمة القمعية فى كل أنحاء العالم ـ إلا أنه يترك مساحة كبيرة للصهيونية. . . . فى حين يجب رؤية الصراع الحديث من وجهة نظر الضحايا، كما يجب قراءة نص الكتاب المقدس «بأعين الكنعانيين»؛ لأن متخصصى الكتاب المقدس لم يقرءوه من هذه الزاوية. . . وينبغى القيام بالبحث فى الكتاب المقدس فى إطار «المصداقية الأخلاقية»، أى انطلاقًا من الحرص على النتائج الأخلاقية للنص الكتابى ومعانيه، لا سيما عندما تخدم أشكالاً عديدة من القمع وتطورها، أقلها نزع كل ما هو إنسانى وتدميره من جراء الاستعمار. ومن الضرورى اليوم ممارسة النظرة الأخلاقية لنصوص الكتاب المقدس وتأويلاته.

. . . لقد قمت بهذه الدراسة وقرأت نص الكتاب المقدس بأعين الكنعانيين وسجلت اعتراضى على استخدام الكتاب المقدس كوسيلة قمع للشعوب».

وفى مواجهة الانتقادات الموجهة لعمله، يوضح الأب مايكل بريور، فى أكثر من موضع، أنه لا يقوم بدراسة شاملة للكتاب المقدس فى كل جوانبه وأبعاده، وإنما يقتصر فقط على مجال محدد لم يحظ باهتمام كاف من الباحثين والدارسين، وهو حالات الارتباط بين الكتاب المقدس فى عهده القديم والاستعمار، وأنه لا يتناسى الإنجازات الإنسانية التى تحققت مع انتشار الكتاب المقدس لدى مناطق وشعوب عديدة، وأنه يبحث فقط فى الوجه الآخر الذى لم ينظر إليه أحد، والذى يسمح بما لا يمكن أن يقبله أى دين.

وفى الحقيقة يذهب الأب مايكل بريور مسافة بعيدة وجريئة فى هذا الشأن، فهو يرى أنه لا يمكن للمرء أن يتهرب بسهولة من ضرورات ما يسميه بـ «المصداقية الأخلاقية» وأعبائها، تحت ادعاء أن المسألة تنحصر فقط فى التأويل الخاطئ للنصوص المقدسة، بينما يرى الأب مايكل بريور أن على المرء أن يعترف بأن أجزاء كثيرة من التوراة، ومن سفر التثنية، على نحو خاص، تحتوى على عقائد مفزعة ونزعات عنصرية وكراهية للغرباء وتشجيع على استخدام القوة العسكرية، وأن بعض الروايات فى العهد القديم أسهمت فى معاناة أعداد لا تحصى من المواطنين الأصليين.

ويؤكد الأب مايكل بريور على أن الهدف من دراسته، التى تعالج الارتباط بين الكتاب المقدس فى عهده القديم والاستعمار، هو أولاً: نقد إهمال المسألة الأخلاقية

من التأويلات الكتابية الأوروبية والأمريكية وإدانة غيابها، وثانيًا: محاولة إنقاذ الكتاب المقدس من استخدامه كأداة قمع واضطهاد للشعوب، وإثارة الغضب الأخلاقي، بالتالي، ضد المستعمرين وما ارتكبوه بحق الشعوب الأصلية، وأنه لم يكن من أهدافه الهجوم على الكتاب المقدس أو اليهود والمسيحيين؛ لأن الكتاب المقدس كان ـ ولا يزال ـ المؤسس لممارساته الدينية.

كما أشار الأب مايكل بريور إلى أن ما صدمه في الروايات التوراتية، هو تلك الصلة العضوية بين الوعد الإلهي بالأرض، والأوامر الواضحة بإفناء السكان المحليين؛ حيث نقرأ في التوراة تحت عنوان: **التحذير من مخالطة الأمم وعبادة الأصنام.**

ومتى أدخلكم الرب إلهكم إلى الأرض التي أنتم ماضون إليها لترثوها، وطرد من أمامكم سبع أمم، أكثر وأعظم منكم، وهم الحثيون والجرجاشيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون. وأسلمهم الرب إليكم وهزمتموهم، فإنكم تحرمونهم. لا تقطعوا لهم عهدًا، ولا ترفقوا بهم، ولا تصاهروهم. فلا تزوجوا بناتكم من أبنائهم، ولا أبناءكم من بناتهم، إذ يغوون أبناءكم عن عبادتي ليعبدوا آلهة أخرى، فيحتدم غضب الرب عليكم ويهلككم سريعًا. ولكن هذا ما تفعلونه بهم: اهدموا مذابحهم وحطموا أصنامهم وقطعوا سواريهم وأحرقوا تماثيلهم.

سفر التثنية ـ الإصحاح ٧: ١ – ٥

وتحت عنوان: **شرائع حصار وفتح مدن أرض الموعد.**

أما مدن الشعوب التي يهبها الرب إلهكم لكم ميراثًا، فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها، كمدن الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمركم الرب إلهكم، لكي لا يعلموكم رجاساتهم التي مارسوها في عبادة آلهتهم، فتغووا وراءهم وتخطئوا إلى الرب إلهكم.

سفر التثنية ـ الإصحاح ٢٠: ١٦ – ١٨

يتساءل الأب مايكل بريور: «أليس الله إله محبة؟ أليس هو منبع الأخلاق والعدل؟ أليس رحيمًا وحانيًا وعطوفًا؟ لماذا يجعلون منه قائدًا لحملة تطهير عرقي ويصورونه كأنه يرتدي رداءً عسكريًا ويشن حرب إبادة ويكره الغرباء؟!».

باختصار يحتوى كتاب الأب مايكل پريور على مادة معرفية غنية بالمعلومات والنصوص والتأويلات والتحليلات التى تخدم فكرة المؤلف الرئيسية، وهى نقد هذا الارتباط الوثيق ـ فى حالات محددة ـ بين الكتاب المقدس وظواهر الاستعمار والاضطهاد والإذلال والإبادة البشرية لبعض الشعوب فى أمريكا وجنوب أفريقيا وفلسطين.

لكن ماذا يعنى لنا نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية؟

لقد أردنا أولاً: توجيه الانتباه ـ على أكبر نطاق ممكن ـ لهذا العمل الأكاديمى الهام، وأن يكون ذلك ـ فى الوقت نفسه ـ تحية لرجل دين شجاع يستحق التقدير والثناء. وكان هدفنا ثانيًا: الإشارة إلى هذا المستوى المتقدم من التفكير النقدى الحر، الذى لم يقتصر على نقد التأويلات الخاطئة والظالمة للنصوص المقدسة، وإنما أشار إلى ضرورة التساؤل حول هذه النصوص ذاتها قبل التركيز على تأويلاتها التى أفضت إلى إذلال شعوب أخرى واستعمارها وإبادتها.

تبقى كلمة أخيرة عن ترجمة هذا العمل الرائد الذى نتوقع له أن يكون فتحًا جديدًا فى مجال فهم النصوص المقدسة وقراءتها، وكذلك الواقع المتأثر بها. لقد بذلت المترجمة وفاء بجاوى ـ وهى جزائرية مقيمة بالقاهرة ـ جهدًا كبيرًا فى ترجمة الكتاب نقلاً عن الترجمة الفرنسية الصادرة عن دار لارماتان الفرنسية فى ٢٠٠٣م، وذلك لأننا حاولنا مرارًا الاتصال بالدار التى أصدرت الكتاب باللغة الإنجليزية، ولم نتمكن من الحصول على النسخة الأصلية إلا مؤخرًا. ورب ضارة نافعة، فمع وصول هذه النسخة الإنجليزية بذل المهندس عادل المعلم جهدًا كبيرًا فى مراجعة الترجمة العربية عن الفرنسية مع الأصل الإنجليزى، وهو ما أضفى على الترجمة العربية مزيدًا من الدقة والتحسين. ونأمل أن يثير هذا الكتاب الجاد ما يستحقه من نقاش وحوار يرتفع إلى مستوى قيمة الكتاب وما يطرحه من قضايا بالغة الأهمية على الصعيدين النظرى والعملى فى آن واحد.

**أحمد الشيخ**